المحاضرة 05 : قصيدة المديح في الشعر العربي القديم

أ- المدح لغة : ورد في لسان العرب : "المديح نقيض الهجاء، و هو حسن الثناء، يقال مدحته مدحة واحدة .. و الصحيح أن المدح المصدر والمِدحة الاسم ، والجمع مِدح، و هو المديح والجمع المدائح و هو الأماديح" [1]

ب – المدح اصطلاحا:

المديح في اصطلاح النقاد و الأدباء غرض شعري، جوهره الشكر و الثناء، وإبراز صفات الممدوح و مناقبه ، فهو " تعداد لجميل المزايا ووصف للشمائل الكريمة و الأخلاق الحميدة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنّه الشاعر لمن توفرت فيهم تلك المزايا و عرفوا بمثل هاته الشمائل "[2]

وعليه فالأصل في المدح أن يصدر عن إعجاب شديد و رغبة متطلعة لشكر الممدوح و تثمين فضائله و إبراز آرائه السديدة و شجاعته الفائقة و كرمه الواسع ، و قد يصدر المدح عن دوافع شخصية أخرى كالطمع في المال و الرغبة في التكسب ، أو التطلع إلى الشهرة و المجد.

أولا: المدح في العصر الجاهلي:

اعتدّ الجاهلون بنبل الأخلاق و مكارم السجايا، فكانوا يتغنون بالنجدة و الحِلم و الشجاعة و الكرم، و المروءة و الوفاء...

[1] ابن منظور، لسان العرب،ط1، دار صادر، بيروت ، 2000، 36(مادة مدح)

[2] أحمد بوحاقة ، فن المديح و تطوره في الشعر العربي ،ط1، دار الشروق الجديد، بيروت، 1962، 5.

فكانت الرجولة الحقّة لا تتجلى إلاّ في هذه السجايا، و من اجتمعت فيه كان حقيقا على الشعراء أن يمدحوه و يعلوا من ذكره بين القبائل و الأحياء، قال شوقي ضيف :" تعوّد العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوي النباهة منهم و يتحدثوا عن خصالهم النبيلة في الكرم و الشجاعة و الحلم و الوفاء و حماية الجار، و كان لا يعد السيد فيهم كاملا إلاّ إذا تغنى بنباهته و مناقبه غير شاعر، و مضوا على هذه السنة في الإسلام، فكل سيد فيهم و كل ذي مكانة يود لو يحظى بشاعر يشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره "[1]

ومن الشعراء الذين عرفوا بالمدح إعجابا بالخلال الكريمة، و إعلاء للمعاني الرفيعة زهير بن أبي سلمى ، الذي قال فيه عمر بن الخطاب: " إنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه"

فقد مدح سيدي غطفان (الحارث بن عوف و هرم بن سنان) لأنهما تكفلا بدفع ديات القتلى واصلحا بين حيين متخاصمين و هما " عبس و ذبيان " في حرب " داحس و الغبراء"

استهل قصيدته بمقدمة كليلة فقال:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم * بحومانة الدراج فالمتثلم

ديار لها بالرقمتين كأنها * مراجيع وشم في نواشرِ معصم

بها العين والآرامُ يمشين خلفةً * وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقفت بها من بعد عشرين حِجةً * فلأيا عرفتُ الدار بعد توهّم

[1] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي – دار المعارف، مصر، 255.

فلما عرفت الدار قلت لربعها * ألا أنعم صباحا أيها الربع واسلمي

انتقل الشاعر بعد ذلك إلى حسن التخلص في قوله :

تبصر خليلي هل ترى من ظغائن * تحملن بالعلياء من فوق جرثم

انتقل فيما بعد إلى مدح سيدي غطفان اللذان سعيا للصلح بين المتخاصمين ، فقال :

يمينا لنعمَ السيدان وجدتماَ * على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعدما * تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً * بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن * بعيدين فيها من عقوق ومأثم [1]

ثانيا: المدح في العصر الإسلامي:

في فترة صدر الإسلام, شدّت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بهديها وسمتها, وعظيم مآثرها ومناقبها قلوب الشعراء المسلمين, فراحوا يثنون على مناقبه , ويشيدون برحمته وعطفه على الفقراء والمساكين والمستضعفين ، وصوروا صدق دعوته , وصبره على أذى قومه و جهاده نصرة للدين ، وتمكينا لرسالة الإسلام .

[1] المعلقات العشر ، الشنقيطي، دار المعارف، بيروت ، المكتبة الأدبية، حلب ، 82-83-84.

فكان حسان بن ثابت على رأس هؤلاء الشعراء و لذلك قال نبينا : " أمرت عبد الله ابن رواحة بهجاء قريش فقال وأحسن وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن , وأمرت حسان بن ثابت فشفى و اشتفى " [1] ، يقول الشاعر في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم * قد بينوا سنّةً للناس تتبعُ

يرضى بها كل من كانت سريرتهُ * تقوى الإلهُ وبالأمر الذي شرعوا [2]

أما كعب بن زهير, فقد مدح الرسول عليه السلام بقصيدته البردة, وقد سارت بذكرها الركبان, ومطلعها الغزلي:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيم إثرها لم يفد مكبول

انتقل بعد ذلك إلى الاعتذار من النبي ، ثم مدحه ، قال :

أنبئت أن رسول الله أوعدني * والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ * قرآن فيها مواعظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم * أذنب ولو كثرت في الأقاويل

إن الرسول لنور يستضاء بهُ * مهند من سيوف الله مسلول[3]

---

[1] شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص78

[2] شوقي ضيف, مرجع سابق , ص 79

[3] نفسه ، ص 86

ثالثا : المدح في العصر الأموي:

اشتهر أصحاب النقائض في مدح الخلفاء والولاة وقادة الجند، طلبا للمال، ورغبة في ذيوع شعرهم بين القبائل والأمصار ، يقول جرير:

سأمتاح البحور فجنبيني * أذاة اللوم وانتظري إمتياحي

ثقي بالله ليس لـ شريك * ومن عند الخليفة بالنجاح

أغثني يا فداك أبي وأمي * بسيب منك إنك ذو ارتياح

وإني قد رأيت عليّ حقا * زيارتي الخليفة وامتداحي

سأشكر إن رددت عليّ ريشي* وأثبتَ القوادم والخوافي

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح [1]

رابعا : المدح في العصر العباسي:

يقول أبو العتاهية في مدح هارون الرشيد:

أتتـ الخلافة منقادةً * إليـ تجرّر أذيالها

ولم تك تصلح إلا لـ * ولم يك يصلح إلا لها

[1] عرفان الأشقر، غازي طليمات، الشعراء في عصر الأموي ، ـ 199-200

ولو رامها أحد غيره * لزلزت الأرض زلزالها[1]

وهذا المتنبي يمدح سيف الدولة و يشيد ببطولاته في معركة الحدث ، يقول :

فيقول:

على قد أهل العزم تأتي العزائم * وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عيني الصغير صغارها * وتصغر في عين العظيم العظائم

يكلف سيف الدولة الجيش هم * وقد عجزت عن الجيوش الخضارم

وقفت وما في الموت شك لواقف * كأنك في حضن الردى وهو نائم

تجاوزت مقدار الشجاعة و النهى * إلى قول قوم أنت بالغيب عالم [2]

[1] شوقي ضيف– عصر عباسي أول، 245

[2]) – ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 385 ، 387